

العائلات الملكية والثوار: المعركة السعودية الإيرانية من أجل مستقبل الإسلام والشرق الأوسط

في وقتٍ سابقٍ من هذا العام، قمت بزيارة الدوحة وقابلت وزير الخارجية القطري محمد بن عبدالرحمن آل ثاني. من بين الأمور غير المسؤولة التي قام بها ولي عهد المملكة العربية السعودية، محمد بن سلمان، فرض حصارٍ افتراضي على قطر، متهماً إياها بدعم الإرهاب. أن يصدر مثل هذا من السعوديين أمرٌ مثيرٌ للسخرية نوعاً ما. لذا، سألت آل ثاني، ما رأيك بهذا المبتدئ البالغ من العمر 33 عاماً، محمد بن سلمان؟

قال لي "لا يمكنك نزع ثوب الإرهاب" الذي كانت "ترنديه [المملكة العربية السعودية] لأكثر من 40 عاماً وتلبسه لقطر على هذا النحو." وتابع آل ثاني القول بأنه بالنسبة للسعوديين "الإرهاب ليس ارتكاب عملٍ إرهابي. الإرهاب هو أن تعارضني."

الإرهاب هو أن تعارضني.

لم تغب هذه الجملة عن ذهني منذ اختفاء جمال خاشقجي داخل القنصلية السعودية في اسطنبول قبل أسبوعين؛ المفكر السعودي الحر وكاتب العمود في صحيفة واشنطن بوست الذي كان يتمتع بالجرأة لانتقاد ولي العهد. كتب جمال خاشقجي في واشنطن بوست، "نحن السعوديون نستحق أفضل مما يحصل."

كان يقصد بالأفضل، أفضل من المجازر التي يرتكبها التحالف بقيادة السعودية في اليمن، وأفضل من اعتقال محمد بن سلمان الجماعي لمنتقديه، وأفضل من اعتقال الناشطات اللواتي بذلن جهدهن للدفع بالقرار السعودي هذا العام بالسماح للمرأة بقيادة السيارة. واليوم، يبدو أن خاشقجي قد قُتل، بأوامر من محمد بن سلمان، بتهمة معارضته.

يقول السعوديون أن خاشقجي غادر القنصلية بعد فترةٍ وجيزةٍ من دخولها، إلا أنهم لم يقدموا أي دليل. لربما يعود السبب في ذلك إلى أن الجثث لا تمشي، كحال "القتلة المارقين" الذين تواجدوا بشكلٍ جماعي في القنصلية. المملكة العربية السعودية تُهين ذكاء العالم.

الإرهاب هو أن تعارضني.

وبالطبع، فإن القدرة على الاختلاف السياسي وحرية التعبير محدودة في جميع أنحاء المجتمعات الاستبدادية في الشرق الأوسط (فهم لا يُجارون عل نحو جيد الولايات المتحدة الأمريكية في ظل حكم دونالد ترمب). القتل أو السجن أبسط وأسرع من النقاش المفتوح. مؤسسة فنك، مُضيفنا اليوم، تقوم

على مبدأ أن حرية التعبير عن الأفكار المختلفة ليست نقطة ضعف بل هي علامة على مجتمع سليم. وهنا تكمن أهميتها.

مع توالي فصول فضيحة خاشقجي، كان سياماك نمازي، رجل الأعمال الإيراني الأمريكي والباحث السابق في مركز ويلسون، قد أتم عامه الثالث في سجن إيفين بطهران. فقد أدين بالتعاون مع الحكومة الأمريكية المعادية. في الواقع هو رهينة سياسي، لا زال يُحتجز كورقة ضغط ضد الولايات المتحدة، تماماً كحال الصحفيين مثل روكسانا صابري وجيسون رضايان المحتجزين قبله.

وعدت الجمهورية الإسلامية بالحرية عندما تسلم آية الله السلطة في عام 1979 بعد حكم الشاه الوحشي، إلا أنه لم يقدم سوى شكلاً آخر من أشكال القمع. لا تزال إيران، بما يُثير الإحباط، على حافة المجتمع الأكثر تمثيلاً الذي سعى إليه الإيرانيون لأكثر من قرنٍ من الزمان.

وكما قال لي في إحدى المرات الكاتب الإيراني المعارض، أكبر غانجي، "لدينا الكثير من الشروط المسبقة للديمقراطية - التحضر، والتعليم العالي، وتنامي الطبقة الوسطى، والمجموعات السكانية الشبابية، والطبقة الفكرية الرفيعة، والحركة النسوية. لقد تضاءلت قوة الأيديولوجية إلى حدٍ كبير، على عكس قوة المال. تمتلك الحكومة المال وتستخدم أموال النفط لخلق طبقة ضخمة من الموالين."

إن لهفة الإيرانيين لمزيد من الحرية تخضع اليوم لتحكم النخبة من رجال الدين والجماعات شبه العسكرية للثورة المُنهكة البالغة من العمر 39 عاماً، تماماً كما شعروا بالإحباط في السابق من الطاغية ذو النزعة الغربية الذي جلس على عرش الطاووس.

موضوعي اليوم هو الصراع المرير الذي يظهر في جميع أنحاء الشرق الأوسط بين إيران الشيعية والسعودية السنية، بين الثوار المتدينين والأسر المالكة المحافظة. قد تأخذ أشكالاً دموية، كما هو الحال في ساحات القتال في اليمن وسوريا؛ أو شكلاً سياسياً، كما هو الحال في قطر والعراق والبحرين.

ومع ذلك، لا ينبغي أن تحجب هذه المواجهة حقيقة أن إيران والسعودية تحملان أوجه تشابهٍ ملفتٍ للنظر. فكلاهما قوى قمعية وتوسعية وتمتلكان سجلاتٍ بشعة في مجال حقوق الإنسان. كلاهما تقمعان المرأة. وكلاهما عارضتا الربيع العربي، لأنهما لا تشعران بالراحة لإنتشار الحرية ومطالب مواطنيهم بالإرادة وحكومةٍ تمثيلية. من هذا المنطلق، كلاهما يمثلان الماضي.

خارج تونس، تم إخماد الربيع العربي إلى حدٍ كبير، إلا أن الإحباطات المكبوتة التي عكستها بين الشباب في الشرق الأوسط لا زالت موجودة، وتضاعفت اليوم بعد سرقة حركة تحررٍ عظيمة. قبل عامين من الربيع العربي، كانت هناك بالطبع الحركة الخضراء الإيرانية في عام 2009، وهي انتفاضة واسعة تم قمعها بالقوة. لم يختفِ الغضب والأمل اللذين شهدتهما خلال تلك الأيام الطويلة من شهر يونيو في طهران.

بالتالي، هذه ليست معركةً بين الخير والشر، بين التنوير والهمجية. إنها معركةٌ بين نظامين مضطربين، قلقين، يمتلكهما عدم ثقة متجذرة ببعضهما البعض. لإنعدام الثقة هذا تاريخٌ طويل.

يتبادل العرب والفرس عداً ودياً. فكلٌ منهما يعتبر الآخر أقل منزلةً. يعود تاريخ التنافس الثقافي بين عالمي السنية والشيعية إلى ألف عام ونصف أو نحو ذلك، إلى معركة كربلاء عام 680، وبالنسبة للشيعية، لن ينسوا قط ذبح الإمام الحسين، حفيد النبي، على يد قواتٍ تابعةٍ للخليفة السني.

لم تخلق أي من الدولتين سلامها مع العالم الحديث، خشيةً من الإفتتاح والترابط وإرادة الشعب. كانت هذه بطريقةٍ ما نقطة خاشقجي الأساسية حول الشرق الأوسط المسلم. كانت المنطقة عاقلة. تعرض الوعد بالربيع العربي للخيانة. فقد كانت مساحة التحرير التي منحته إياها واشنطن بوست، بالنسبة له، بمثابة رؤيةٍ لحريةٍ لا يمكن تصورها.

لهذا السبب اختار خاشقجي العيش في منفى اختياري في ولاية فرجينيا. نعم، انتقد ولي العهد (في الوقت الذي امتدح فيه محاولته سحق التطرف الوهابي الذي غذته السعودية وأسفر عن ظهور القاعدة وداعش)، إلا أنه هدفه كان أكبر بكثير. وكما قال ذات مرة، "لقد كان العالم العربي يسعى إلى النهضة خلال المائة عام الماضية." وكان هذا أيضاً حال إيران. القصة التي سأرويها اليوم هي قصة وعدٍ محبط، والسعي المستعصي على الفهم للمصالحة المطلقة بين الإسلام والحداثة.

+++++

ريبة الإيرانيين تجاه العالم العربي ضاربة الجذور. وكحال اليهود، الشيعة هم أقلية، وإن كانت أكبر حجماً، في الشرق الأوسط السني. ترك قرنان من الحكم العربي بصمةً واضحةً فالقصيدية الملحمية الفارسية العظيمة التي تعود إلى القرن الحادي عشر، الشاهنامه، تُشكل، من عدة جوانب، التأكيد على القومية الإيرانية ضد العالم العربي، وهو تناقض عززه تبني المذهب الشيعي. أي شخص يقضي وقتاً في طهران، يدرك بسرعة أن العربي، وليس اليهودي، هو الهدف الخالد للاحتقار الفارسي.

لذا، فالمياه معكرة. عندما نهض الشعب الإيراني ضد محمد رضا بهلوي المدعوم من أمريكا عام 1979، وأثبتت الشرطة السرية، السافاك، التي تُلقت تدريبها في الولايات المتحدة الأمريكية، عجزها أمام إرادة الشعب بتصيب آية الله الخميني زعيماً للبلاد، كان السعوديون ينظرون إلى المرأة ولا يرون سوى الشاه الذي تم إسقاطه.

ففي النهاية، ألم تعزز القوة الأمريكية مكانة آل سعود، الذين لم يكونوا سوى نظاماً مستبداً هشاً، في الحادثة الأخيرة باسم النفط والاستقرار؟

عندما تم الاستيلاء على المسجد الحرام في مكة في أواخر عام 1979 من قبل مسلحين إسلاميين كانوا يسعون للإطاحة بآل سعود، تحولت هذه المخاوف الوجودية إلى حالةٍ من الذعر. كان رد فعل الملك السعودي خالد، على حد تعبيره، من منطلقٍ دينيٍ فحسب. تم حظر صور النساء في الصحف. اختفت النساء من شاشات التلفزيون. تم إغلاق دور السينما. تمت إضافة ساعاتٍ من الدروس الدينية للمناهج الدراسية. أصبح الفصل بين الجنسين في جميع الأماكن العامة إلزامياً.

إن تصدير السعودية لإيديولوجيتها الوهابية المتشددة للمدارس الفكرية في جميع أنحاء العالم تضاعفت بسرعةٍ كبيرة. فقد تدفق المصريون والأردنيون وغيرهم نحو الاقتصاد السعودي الغني بالنفط للعمل.

عادوا إلى ديارهم بثلاجاتٍ- وتفسيرٍ أكثر تعصباً للإسلام. انتشر الحجاب. وكذلك هو حال الكراهية تجاه الغرب الكافر.

في البداية، دعمت الولايات المتحدة الأمريكية المجاهدين أو المحاربين الجهاديين لأغراض إستراتيجية مضادة للسوفييت في أفغانستان. تحوّل بعد ذلك الإهتمام الأمريكي، كما يفعل عادةً. في ظل هذا الفراغ، تحوّل هذا الطفل الجهادي المدعوم من السعودية والذي يعود بالنفع على أمريكا إلى وحشٍ متشعب تواقٍ للإنتقام حمل أسماء مختلفة مثل القاعدة وداعش. دفع الغرب ثمناً باهظاً في نيويورك ولندن وأمستردام وأماكن أخرى بسبب الإهمال الأمريكي المتعطر في ثمانينات القرن العشرين.

هنا، أود أن أقتبس عن خاشقجي حديثه عن بلاده مجدداً، عندما كتب هذا العام في صحيفة واشنطن بوست:

"أتفق مع محمد بن سلمان أن على الأمة العودة إلى مناخ ما قبل عام 1979، عندما قامت الحكومة بتقييد عقائد الوهابية المتشددة. ينبغي أن تتمتع النساء اليوم بنفس حقوق الرجال. وينبغي أن يتمتع جميع المواطنين بالحق في التعبير عن آرائهم دون خوفٍ من السجن. إلا أن استبدال التكتيكات القديمة بعدم التسامح بطرقٍ جديدة للقمع ليس الحل."

+++++

شهد ذلك العام، عام 1979، نقطة تحول. كان هناك ركيزتان للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط المسلم: دعم الشاه آل سعود. والآن، اختفت واحدةٌ منهما. فقد أعادت أزمة احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران، وهو جرحٌ غائر لا ينساه الأمريكيون، لمدة 444 يوماً الكراهية الإيرانية الجديدة للشيطان الأكبر. وعليه، احتضنت الولايات المتحدة الأمريكية السعوديين بقوة أكبر لم يُضعفها حتى تورط 15 سعودي في أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

شعر آل سعود بالراحة إزاء ذلك: فصفقات السلاح الأمريكي والمساعدات تناسبهم تماماً. فقد باتت الأسرة المالكة قوة الوضع الراهن في الشرق الأوسط بلا منازع.

ومع ذلك، بدأت بعدها الولايات المتحدة بالميلان.

من وجهة نظر السعوديين، كانت الحرب العراقية هديةً لإيران. لم يكونوا مخطئين بذلك. فقد انتهت السيطرة السنية لصدام حسين؛ وجاءت الأغلبية الشيعية المضطهدة والمظلومة غالباً إلى السلطة. وسعت إيران نفوذها داخل العراق عبر هذا التحول. فقد غيرت الحرب الأمريكية الميزان السني- الشيعي في الشرق الأوسط، وهي إحدى الطرق العديدة التي كانت تؤدي إلى زعزعة الاستقرار.

الأسوأ من ذلك، من وجهة نظرٍ سعودية أيضاً، كان أن يحذو حذوها. توصل الرئيس باراك أوباما، أثناء سعيه إعادة تقييم استراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والتعامل مع الجمهورية الإسلامية، إلى اتفاقٍ نووي مع إيران. كانت إعادة التوازن هذه منطقية. إيران قوة شرق أوسطية رئيسية. فهي اقتصادٌ كبير، إذ يوجد خلف النظام القمعي، مجتمعٌ واعٍ ذو تعليم عالٍ وموَالٍ إلى حدٍ

كبير للغرب. أصبح الاعتماد الأمريكي على النفط السعودي شيء من الماضي؛ حيث اتسعت الخيارات الاستراتيجية الأمريكية. كان الاتفاق النووي بعيداً كل البعد عن الكمال، إلا أنه أفضل من أي بديلٍ آخر.

بالنسبة للسعوديين وحلفائهم في دولة الإمارات العربية المتحدة، كان ذلك مجرد دليلٍ على غدر باراك حسين أوباما.

أخذ هذا الغدر، بالنسبة للأسرة المالكة السعودية، منحى أكثر عمقاً في سوريا، عندما دعم باراك أوباما المعارضة السنية في وجه بشار الأسد، ووعد العالم بالإطاحة ببشار الأسد، ووضع خطوطاً حمراء ضد استخدام الأسد للأسلحة الكيماوية- ولكن ليتجاهلها فحسب. لا قيمة لكلمة أمريكا! لا قيمة لتحالف أمريكا مع السعودية، الراعي الرسمي لأولئك المتمردين السنة المناهضين للأسد!

والآن، باتت الأمور واضحةً في الرياض: تخلت عنها واشنطن لصالح تقاربٍ غير معلن مع إيران. عادت سياسة الركينزين. كان الأمر مرعباً.

كان دليل خيانة أوباما، بالنسبة للسعودية، موجوداً في كل مكان. إن من العناصر الهامة لواقع الشرق الأوسط وجود إسلامٍ سياسي ليس مرادفاً للإرهاب. عندما فاز الإخوان المسلمون بالانتخابات الحرة الوحيدة في مصر في عام 2012، حاولت إدارة أوباما العمل مع الرئيس المنتخب، محمد مرسي، الذي يقبع اليوم في السجن، عليلاً في الحبس الانفرادي.

أرعب قبول أوباما لمرسي السعوديين والإماراتيين الذين يعتبرون الإخوان إرهابيين. فقد قال لي عادل الجبير، وزير الخارجية السعودي، في مقابلةٍ أجريتها معه في وقتٍ سابقٍ من هذا العام، مع أوباما، كيف يمكن لأي شخص "الاي يصل إلى استنتاج مفاده أنك تريد أن يُسيطر الإخوان المسلمين على المنطقة؟"

قلت إن السعوديين هم القوة الأولى في المنطقة في ظل الوضع الراهن. في الواقع، تزاممهم إسرائيل، التي تسعى بكل الوسائل للحفاظ على هيمنتها العسكرية والنووية. لهذا السبب يختار كلاهما رؤية الجمهورية الإسلامية بنفس الطريقة: تعبيرٌ عن شرٍ خالص، يمكن مقارنته بنظام هتلر النازي.

هذه هي متلازمة اضطراب إيران. لقد شاهدت بأم عيني وحشية القمع الإيراني عام 2009، عندما نهضت الحركة الخضراء ضد انتخابات محمود أحمددي نجاد المزورة، ولا أملك أي أوامٍ حول بشاعة النظام. الدعم الإيراني لبشار الأسد وهجماته الكيماوية ضد المدنيين مروغٌ مثلما فعل السعوديون في اليمن.

إلا أن إيران مجتمعٌ متعدد الأوجه مع العديد من مراكز القوى. نجت الجمهورية الإسلامية لعدة أسباب؛ واحدة من أبرزها هي الحكمة. هذه ليست مجموعة من المتعصبين في مسيرة "الفتح والإخضاع والإرهاب"، كما وصفهم رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو.

مع ذلك، هذه هي وجهة النظر الآن في المملكة العربية السعودية. فقد شرع السعوديون الذين شجعهم انتخاب دونالد ترمب وانقلابه على محاولة أوباما إعادة التوازن إلى الشرق الأوسط، والمطمأنين

بإعجاب ترمب الشديد بمحمد بن سلمان، التي عززها وصول ولي العهد الجامح هذا إلى السلطة، والمقتنعين بأن النفوذ الإيراني المتنامي في بغداد ودمشق وبيروت وصنعاء يُشكل مؤامرةً شيعيةً للسيطرة على الشرق الأوسط، بشن سلسلةٍ متهورة من الحروب البديلة، على الصعيدين العسكري والدبلوماسي، لاستئصال النفوذ الإيراني.

هذا ما نراه في أرجاء المنطقة، من اليمن إلى سوريا إلى قطر. بعض مخاوف المملكة الإستراتيجية مفهومة، إلا أن الحماسة ليست هي الحل لمسيرة التاريخ. هناك أمرٌ واحدٌ في الحماسة يصعب استيعابه: قتل خاشقجي الواضح هو الدليل على ذلك.

+++++

دعونا نُلقي نظرةً سريعةً داخل هذين المجتمعين. كما قلت، كلا النظامين مضطربان. المناورات الخارجية والتضحية بكيش فداءٍ هي الملاذ المعروف جيداً للحكومات الضعيفة التي تسعى إلى تعزيز القومية لتعويض ما خسرتَه بسبب عدم الكفاءة. انظروا إلى إيران في سوريا، والسعودية في اليمن.

إن السعودية وإيران مجتمعاتٌ شابة، ولديهما قاعدة ضخمة من الجيل الذين تقل أعمارهم عن 30 عاماً، المرتبطين بالعالم والمتعاطشين للمعرفة، والذين يطالبون بالمزيد من حكمهم.

بعد أن قضيت أسبوعاً هذا العام في المملكة العربية السعودية، وجدت شعباً مشوشاً حيث المجمعات التجارية الضخمة المليئة بالمتاجر تُغلق خمس مراتٍ في اليوم لأداء الصلاة ولا تزال المطاعم الحديثة غارقةً في التفاصيل الدقيقة للفصل بين الرجال والنساء. هناك جرعةٌ كبيرة من مدينة هيوستن المفعمة بالحيوية ومقدارٌ ضئيل من قمع مدينة بيونغ يانغ.

يبدو إن الاعتقاد الشبيه برواية كانديد بأن الأمير المبهر سيقدم أفضل ما في العوالم الممكنة، منتشرٌ جداً. ومع ذلك، كان من الواضح بالنسبة لي أن الأمير محمد ينشر أيضاً ذلك النوع من الخوف الذي يجعل المرأة التي تتحدى الشرطة الدينية خائفةً من إعطاء اسمها. تبنى الإنترنت، ولكن ليس إلى الحد الذي يسمح باستخدامه لانتقاد الأسرة المالكة. منفتحة على الأعمال التجارية، إلا أنها محصورة بنفوذ آل سعود.

المملكة العربية السعودية هي مركز تأهيل. سيكون من الفظاظة والخطأ أن نقول أن محمد بن سلمان لم يغير أي شيء. تشعر الكثير من النساء بوجود أملٍ لهن للمرة الأولى. فقد عبرت تماضر الرماح، نائب وزير العمل، والمرأة الأعلى مقاماً في الحكومة السعودية، عن استيائها من الأفكار النمطية خلال اجتماع للبنك الدولي عُقد مؤخراً في واشنطن، إذ قالت "يسألني الناس 'هل يُمانع زوجك عملك؟' أو 'هل حصلت على الإذن؟'". وبالعودة إلى ديارها، كانت في زيارةٍ لبلدةٍ صغيرة في الشمال، حيث شاهدت شاباتٍ، بعضهن يغطين وجوههن وبعضهن لا يفعلن ذلك، يقمن بمهام المبيعات جميعها في المجمع التجاري. وأضافت "قبل وقت قصير كانوا جميعهم من الرجال." "نحن نكسر هذه الصور النمطية."

فلا عجب إذاً أن الغرب توقف قليلاً ولاحظ الأمر وسمح لنفسه بأن يتعرض لهذه الإغراءات. إذا ما كان الأمير جاداً في التراجع عن نموذج المملكة المتشدد في الإسلام- قمعها للنساء ودعمها الإيديولوجي للتطرف- يمكن أن يكون ذلك أمراً بالغ الأهمية.

يمكن، من الناحية النظرية، تغيير أكثر من المملكة العربية السعودية. يتجه الكثير من مسلمي العالم البالغ عددهم 1,8 مليار نحو البلاد خمس مرات في اليوم للصلاة. "عندما ينظر الناس إلى المملكة العربية السعودية، يرون مكة والمدينة، يريدون محاكاتها،" بحسب ما أخبرني به وزير الخارجية عادل الجبير في المقابلة. وأضاف "عندما يرون الانفتاح والاعتدال والتسامح والابتكار، فهذا ما يريدون أن يكونوا عليه." لا يوجد بلدٌ آخر، كما يقول، "يمتلك هذه القوة الناعمة."

بعبارةٍ أخرى، إذا ما غيرت الإسلام بنواته السعودية، سنُغيّر العالم.

هناك مدرستان فكريتان حول آفاق الإصلاح. سأسمي الأولى فئة التوقيت المثالي، والتي تقول أن محمد بن سلمان استغل نجاح موجة كانت تترامك لبعض الوقت. شبكة الإنترنت التي لا تخضع للرقابة إلى حدٍ كبير، ومشاركة السعوديين المكثفة في وسائل التواصل الاجتماعي، ومنح الأفضلية للشباب، وتعليم النساء، والسفر المتكرر، والمراجعة الذاتية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، جميع ما سبق مهد الطريق أمام مبتدئٍ ثوريٍ للتقدم سريعاً بمجتمعٍ سريع الغضب.

ترى المدرسة الثانية زعيماً متهوراً، وفساداً كأولئك الذين اتهمهم بالفساد، عندما هرع مسرعاً في سعيه لتحقيق الحداثة بينما عزز الحكم بمرسومٍ ملكي، ورفع الدعم حتى مع شرائه قلعةً تاريخية فرنسية بمئات الملايين من الدولارات. فقد أخبرني سامر شحاته، الأستاذ في دراسات الشرق الأوسط في جامعة أوكلاهوما إن "محمد بن سلمان شخص غريب الأطوار وغير عقلائي وغير ناضج." وأضاف "هل هو حقاً الرجل الذي سيوفق بين السعودية والعالم الحديث؟"

بعد حادثة خاشقجي، أصبحت هذه المدرسة الثانية المتشككة، بالطبع، أكثر تجذراً. وبالتأكيد، هذا هو حال جريمة القتل الجنونية هذه، وحال الغطرسة التي أمرت بتنفيذ الجريمة، وبأن بقاء محمد بن سلمان على المدى المتوسط أصبح موضع شك، على الرغم من السلطة القسرية التي يمتلكها. محمد بن سلمان له أعداء، من البلاط الملكي وصولاً إلى رجال الدين المحافظين. جميعهم ينتظرون.

+++++

وجدت إيران نفسها في لحظةٍ سياسية حساسة. الغضب من النظام يتصاعد. وانهارت العملة. كما تبخرت الآمال التي عُقدت على الاتفاق النووي. آية الله الخميني بات طاعناً في السن، وبحسب بعض التقارير، صحته معتلة.

فقد تم إضعاف الرئيس حسن روحاني بسبب فشله في تحقيق انتعاشٍ اقتصادي أو حماية البلاد من وضعها الحالي المنبوذ - وهو أمر يكرهه معظم الإيرانيين الذين يتعطشون للمزيد من التواصل مع الغرب. المزيد من العقوبات الأمريكية لن تؤدي إلا إلى زيادة الإحساس بالعزلة.

ومع ذلك، فإن الجمهورية الإسلامية مرنة ومفعمة بالحياة. المؤسسات التي تدعمها، لا سيما الحرس الثوري، قوية على وجه الخصوص. عاشت إيران تحت ضغوطٍ أمريكية منذ عقود، وهي تعرف تماماً كيف تستغل سبل التجارة عبر مختلف حدودها مهما كانت محاولات تقليص تلك التجارة. هي بلدٌ فخورة.

إذا كان هناك شخصٌ في واشنطن يعتقد أنه يمكن إخضاع إيران، فلا يسعني إلا أن أقول لذلك الشخص، أنت لا تعرف شيئاً عن كبرياء الإيرانيين. الكثير من هذا الكبرياء راسخٌ في البرنامج النووي، تماماً كما كان راسخاً في السابق عند الإطاحة بالمستعمرين المستغلين لاحتياطيات النفط في البلاد. لا تمتلك إدارة ترمب خطة، بل دوافع شديدة. كان الانسحاب من الإتفاق النووي إنتكاسةً كبيرة، وفصل أوروبا عن الولايات المتحدة.

الصور النمطية التي تنتقل من شخصٍ لآخر في الغرب تفشل في الإيقاع بإيران التي أعرفها. إليكم مشهداً من إحدى رحلاتي التي أعتبرها مؤشراً على أن محاولة ترمب الجلية للدفع إلى تغيير النظام هي على الأرجح محاولةٌ محكومٌ عليها بالفشل. يريد الإيرانيون الاستقرار. يُفضلون أن يجدوا طريقهم حول النظام بدلاً من سفك الدماء. عندما تجاورك أفغانستان من جهة، وسوريا من الجهة الأخرى، فهذا ليس بالأمر المستغرب.

مقهى ناديري هو مكانٌ قديمٌ لتجمع المثقفين في وسط طهران. يوجد به حديقةٌ خلفية كانت في السابق، أيام الشاه، منطقةً رومانسية. واليوم، المسرح الذي كانت تعزف فيه الأوركسترا أغاني سيناترا بينما يرتشف زوجان القليل من الشمانيا ينهار، ولا يوازن أجواء المقهى سوى الكرامة الشديدة للنوادل. كنت أحتسي القهوة هناك في صباح أحد الأيام عندما دخلت فريده وجلست على الطاولة المقابلة.

وفي لفتةٍ متكررة بين الشابات الإيرانيات، سمحت لحجابها بالإنزلاق عن رأسها واستغرقت وقتاً طويلاً لتعديله، كاشفةً عن ما يريد الملالي إخفائه من شكل المرأة: شعرها. كان شعرها كثيفاً. كانت متعددة المهام، إذ كانت تتحدث مع صديقتها، وترفع ظلال حجابها من ماركة شانيل مرةً أخرى على رأسها، وترسل رسائل نصية على هاتفها، وترمقني أنا وغيري بنظراتٍ هنا وهناك، وتطلب الشاي، وتداعب بيديها شعرها الكثيف أثناء محاولاتها المعدودة وغير المجدية لإعادة الحجاب على رأسها. سألتها إذا ما كانت على استعدادٍ للردشة قليلاً. كانت كذلك.

في الخارج وفي الشارع المزدهم، مدت فريده يدها- والتي تعدّ خطوةً يملؤها التحدي في إيران حيث يعتبر أي تلامس جسدي بين رجلٍ وامرأة خارج إطار الزواج من المحرمات. إن قضاء ليلةٍ في الحبس بعد أن تلقي الشرطة الأخلاقية القبض عليك ملبساً هو طقس انتقالٍ للعديد من الأزواج. هذا ما قالت له فريده بعد أن تصافحنا.

كانت من سابزيفار، وهي بلدة "مغلقة وخائفة" في شرق إيران. وفي ظل تصميمها على الحصول على التعليم، سبحت ضد تيار تقاليد والديها، حيث ارتادت جامعة طهران عندما كان عمرها 18 عاماً: "اضطرت للقتال من أجل الابتعاد. أنت لا تدري كم هو أمرٌ صعب بالنسبة للمرأة هنا."

عندما كانت لا تزال طالبة، وأثناء زيارتها لديارها، وقعت في حب ابن أحد الجيران، وتزوجته في سن العشرين. قالت: "بعد ذلك، أدركت مدى تعصب الرجل الإيراني."

كان الزواج كارثي وانتهي بالطلاق، كحال أعداد متزايدة من الزيجات في الجمهورية الإسلامية. واليوم، فريده على درجة عالية من التعليم ومطلقة وتبلغ من العمر 30 عاماً، وهي واحدة من فئة متزايدة من النساء الحاصلات على شهاداتٍ جامعية ودون زوج. لا مكان لهن في الهياكل الاجتماعية المتزمتة للثورة.

إذ قالت لي: "عند اندلاع الثورة أخبرونا أن نضع الحجاب وإلا تعرضنا للضرب على رؤوسنا. ولكن الحقيقة كانت أننا وضعنا الحجاب ومع ذلك تعرضنا للضرب." وأضافت، "موضوع العذرية هذا، أن تكوني عذراء عن الزواج، هذا مجرد إرضاءٍ للعقد النفسية لدى الرجال." أشعلت سيجارة، وقالت، "انظر، الحياة صعبة، إلا أننا نجد طريقنا."

أشعر أحياناً أن إيران تشبه لعبةً كبيرةً لملاحقة القط للفأر. مجتمعٌ أصبح بوسائل عديدة أكثر علمانية، إلا أنه يعمل في ظل بنية فوقية لرجال الدين الذين يرأسهم خامنئي، "المرشد" والذي يعدّ المترجم النهائي لكلمة الله. نظام الوصاية هذا للفقيه، أو ولاية الفقيه، ييغضه العديد من الإيرانيين لأنه، وكما لاحظ الكاتب البريطاني كريستوفر دي بيليغو، "قمة الهرم بالكاد ترتبط بالجماهير؛ فالفقيه الأعلى- أو المرشد- لربما يكون أيضاً قد هبط من الجنة".

خضعت المثل الديمقراطية للثورة لتفسيرات آية الله الخميني للإسلام. لربما تُسرق جميع الثورات بطريقةٍ ما. ولكن بعد الكثير من الحروب والمعاناة التي عاشها الشباب الإيرانيون، باتوا أقل ميلاً إلى النهوض والصراخ بأن هناك "سرقة" ويحاولون بدلاً من ذلك إيجاد طريقٍ آخر على غرار فريده.

كحال الصينيين بعد الصدمات التي تعرضوا لها في القرن العشرين، يُثمن الإيرانيون الاستقرار. فهذا أمرٌ نادرٌ في منطقتهم. لقد رأوا حرياتهم الشخصية تنمو على الهامش طوال حياتهم التي بدأت بالملاجيء، و صافرات الإنذار والتقنين في الثمانينات. الإنترنت والقنوات الفضائية مهمة بالنسبة لهم. فعشرات الملايين من الإيرانيين موجودون على الشبكة. يتم قمع المواقع الإلكترونية، إلا أنها تظهر مجدداً: النظام لا يمتلك كفاءةً كبيرة. ومع ذلك، لا تزال الأمور وحشية، كما يشهد جميع أولئك السجناء في إيفين. بشكلٍ عام، يقول الإيرانيون "نعم" للإصلاح" ولكن "لا" للإضطرابات- فما بالكم بنهاية العالم.

إن أكثر من نصف عدد السكان، الذي تضاعف منذ الثورة إلى 72 مليون نسمة، بعمر فريده أو أصغر. ومن بين 2,7 مليون طالب جامعي، هناك حوالي 60% نساء. ناصر الهديان، وهو أستاذٌ جامعي، قال: "أخبر طلابي أنه من الصعب الانتظار لكن يجب أن تكونوا صبورين. لا يمكن لقوانين دولةٍ ما أن تنعزل عن الواقع إلى الأبد، وحقائق إيران اليوم هي أن النساء قد تم تمكينهن وانتشرت العلمانية".

في النهاية، إن أفضل ترياقٍ لجاذبية الإسلام السياسي كفسفةٍ سياسية يمكن أن نعيشها عملياً، وهو ما فعلته إيران منذ 40 عاماً تقريباً.

إن طرق فريده لإيجاد حل حول "النظام" تضمنت إقامتها علاقة، على مدار العامين الماضيين، مع رجلٍ ثري متزوج الذي يرسل لها جزءاً بسيطاً من أموال نبع إيراني النفط العظيم- كسبٌ كفاجيء وصل إلى 200 مليار دولار قبل أن تنخفض أسعار النفط إلى 50 دولاراً للبرميل من 150 دولاراً. انتهت العلاقة، إلا أن فريده، التي تعمل لصالح وكالة إعلانات والتي تقول أنها معجبة بفولكنر وماركيز، تمتلك سيارة هونداي وترتدي ساعة روليكس، وتمتلك شقةً صغيرة في إحدى مرتفعات شمال طهران، والتي يمكنها التفاخر بها.

فقد أخبرتني "إنه عالمٌ يسبب الإدمان، إلا أن عليك الخروج منه." وأضافت "بمجرد أن تنتهي من كوب الشاي،" بينما قامت بإطفاء سيجارتها بإيماءةٍ حاسمة- "لا يتبقى شيء هناك. صدقوني، طبقٌ من الفاصولياء بحب طعمه أفضل بكثير من شريحة لحمٍ دون حب!"

هذه أيضاً، أيها السيدات والسادة، إيران.

+++++

لن يكون هناك نصرٌ في الصراع ما بين المملكة العربية السعودية وإيران. إنها معركة قديمة ازدادت سوءاً. فأَي من البلدين يمتلك قيادة جيدة أو قوية أو براغماتية. ليس لدى أي منهما رسالة قوية، كالتي كانت لدى الخميني عام 1979. ويبدو أن محمد بن سلمان قد ارتكب للتو جريمةً شائنةً لن يتعافى منها بسرعة. علينا أن نتحلى بالصبر.

جميع الحروب تخدم في النهاية. أنظروا إلى بيروت حيث ذهبت لأول مرة كمراسل لصحيفة وول ستريت جورنال بعد أن استهدف تفجير قوات أمريكية في عام 1982. الحرب الأهلية التي كانت تبدو بلا نهاية، توقفت. لبنان مجتمع مختل وظيفياً، بحكومة حزب الله المركزية الاقطاعية الضعيفة، إلا أنها في الوقت الراهن ليست عنيفة. أفضل ما يمكن أن تنمناه في سوريا في هذه المرحلة هو حالة مشابهة من الاستنزاف المجزأ الذي يُسكت صوت المدافع.

في اليمن، ارتكب السعوديون والإماراتيون جرائم فظيعة، من قصف للمستشفيات والحافلات المدنية وما شابه ذلك. الحوثيون ليسوا مجرد عملاء إيرانيين، هم جزء لا يتجزأ من السكان. يريد محمد بن سلمان سحق كل أثر للنفوذ الإيراني في اليمن، تماماً كما يفعل في قطر (التي تشترك في أكبر حقل للغاز الطبيعي في العالم مع إيران). هذا لن يحدث. سيتعين على ولي العهد أن يتعلم التوصل إلى تفاهاتٍ أو سيفشل.

قبل 65 عاماً، تعرّض رجل التسويات، رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق، لإنقلاب بريطاني-أمريكي. كانت جريمته، من وجهة نظر وكالات المخابرات المركزية الأمريكية وجهاز الاستخبارات البريطاني، قيامه بتأميم شركة النفط الأنجلو-إيرانية. اتفق مصدق، وهو مؤيد لمبادئ الدستور تلقى تعليمه في أوروبا، مع مقولة فولتير: "قد أختلف معك في الرأي ولكني مستعد أن أدفع حياتي ثمناً لحقك في التعبير عن رأيك." لقد كان ليبرالياً ومُحدثاً، إلا أنه كان ضد فرض المؤسسات أو القوانين الغربية على إيران لأن "النتيجة المباشرة لتقليد أوروبا ستكون هزيمة بلدٍ مثل إيران، لأن كل شيء يجب أن يتناسب مع الحاجة."

كانت وفاة مصدق أفضل أمل للمصالحة المستقرة للديمقراطية والوطنية والدين الإسلامي. وضع الانقلاب إيران على موجة متذبذبة قد تعود بنتائج عكسية ما بين احتضان الغرب (الشاه) واحتضان قائد ملهم (السلطة الدينية ما بعد الثورة). دفع هذا بالولايات المتحدة الأمريكية، مُكرهةً، إلى دعم الطغاة في الشرق الأوسط، القادرين، بحسب مزاعم القادة الأمريكيين منذ زمنٍ طويل، على توفير النفط والاستقرار- موقفٌ استراتيجي يُخالف القيم الأمريكية وأحد أهداف الربيع العربي الذي كشف هذا النفاق.

وها نحن الآن، لا تزال المجتمعات الشرق أوسطية منقسمةً بين المتنفذين والإسلاميين، ولا تزال مؤسساتهم ضعيفة، وتطلعاتهم الليبرالية المفعمة بالحياة خلال الربيع العربي، ولدت ميتة. هذه مجتمعات بلا مركز سياسي.

إذا ما قام السعوديون حقاً بكبح جماح الوهابية، سيُغيّر هذا عالمنا. إذا ما اكتسبت القوى المؤيدة للديمقراطية والليبرالية القوية في إيران هيمنةً، سيُغيّر هذا عالمنا. ستكون المرحلة الانتقالية بعد خامنئي لحظة حساسة بشكلٍ خاص.

احتوى الربيع العربي على حقيقةٍ جوهرية في الشرق الأوسط المسلم: تعبت الشعوب من الأنظمة الأوتوقراطية المتحيزة، فهم يريدون السيطرة على مصائرهم، ويبحثون عن المزيد من الحرية. لن أنسى أبداً الشباب العرب الشجاع الذين قابلتهم في ذلك الوقت في ميدان التحرير وبنغازي وتونس، ولا الإيرانيين الشجعان الذين كانوا يحتجون في عام 2009. سألت امرأة إيرانية كانت تتحدث إليّ عن اسمها، فقالت: "اسمي إيران."

نعم.

ولكن في الوقت الراهن لا يتمتع الإصلاحيون سوى بالقليل من الدعم- ولكن لا شيء في واشنطن ترمب، أو قدس نتينا هو، أو قاهرة السيسي، أو حتى رياض محمد بن سلمان. إن وصف إيران بالنظام النازي هو في كثير من الأحيان مجرد محاولة لتمويه القمع المحلي. لقد حلت محل الصراع الفلسطيني باعتباره تشينياً ملائماً عن الحكم القاسي.

في غضون ذلك، وصلت إيران طريقاً مسدوداً عقيماً.

عاجلاً أم آجلاً، سيكون على المنطقة أن تتعامل مع ما قاله لي وزير الخارجية القطري، آل ثاني، في وقت سابق من هذا العام: "لست أدافع هنا عن جماعة الإخوان المسلمين، لكن وجهة نظرنا هي أن عليكم أن تمنحوا كل من يرغب في المشاركة في عملية سياسية، وعملية ديموقراطية، وبشكل علني، وبطريقة شفافة - الفرصة، دون إجباره على الاختباء والسماح له بارتكاب الجرائم."

بعبارة أخرى، دعوا العمليات الديمقراطية تُستنفذ. لا تقمعوا الفلسطينيين. لا تُدينوا الخصوم السياسيين بعمليات إعدام جماعية، كما تفعل إيران. لا تسفكوا الدماء ظلماً كما فعل السيسي والأسد. لا تقتلوا المدنيين السوريين بالغاز. لا تقتلوا الحضارة بذبح وتقطيع أوصال صحفي، كما فعل محمد بن سلمان. ولا تقتلوا نساء وأطفال اليمن.

لا تقبلوا هذه الكلمات: الإرهاب هو أن تعارضني.

بدلاً من ذلك، امنحوا المواطنين الحماية التي توفرها سيادة القانون، التي تعتبر مرادفاً للإرادة والأمل.

أخشى أنني لم أمنحك الكثير من الأمل اليوم، لذلك اسمحوا لي على الأقل أن أختتم بأبيات شعر جميلة للشاعر الإيراني حافظ... كلماتٍ عن التجديد والنهضة:

على الرغم من أنني طاعنٌ في السن إلا أنك احتضنتني
بقوةٍ في إحدى الليالي
لذا عدت شاباً من جديد
عند الفجر وأنا إلى جانبك.

النهاية